المثقف الليبي علي فهمي خشيم:

رحلة في تاريخ الكلمات وأصول اللغة والحلم العربي

ابراهيم درويش *

■ علي فهمي خشيم باحث ليبي معروف ومن الجيل المؤسس للثقافة الليبية التي نشأت بعد الاستقلال حيث اسهم في تطوير ودعم البنى الثقافية الليبية في بلاده سواء من خلال ابحاثه ودراساته الطريفة والعميقة في حقل اللغات وعلاقاتها النسبية وأولوية العربية على غيرها من اللغات، او من خلال دأبه على حضور المنتديات والملتقيات الفكرية والثقافية، العربية والعالمية او من خلال توليه عددا من المناصب الرسمية في الدولة. والحديث مع خشيم كما يقولون ذو شجون خاصة عندما يتعلق الامر بمصير اللغة العربية ودورها الثقافي. علي فهمي خشيم من الباحثين المهتمين بمقارنة اللغات ويؤمن باصالة اللغات العالمية وعلاقتها النسبية بمجموعة اللغات العروبية التي تضم المصرية والليبية والكنعانية وغيرها. وكتابه المهم رحلة الكلمات الاولى والثانية ينم عن معرفة باصول الكلمات ومقارنتها باللغات الاخرى، ففي مقدمة كتابه «رحلة الكلمات» الجزء الاول منه اشار الى اتجاهين في علاقات اللغات بعضها ببعض، الاولى التي تأتي عن طريق النقل والاستعارة والثانية التي تبحث في صلات الشبه بين جذور الكلمات وهو ما قام به علي فهمي خشيم في عدد من كتاباته، حيث يرجع الكثير من الكلمات المعروفة الى اصولها العربية، فاسماء المدن الاوروبية مثل روما، وقرطبة هي عربية في اصولها، والنشيد الوطني الفرنسي، والبرجوازية، وحمض الامونيا، واسماء الاباطرة الرومان كلهم، والنيتروجين هي اسماء وكلمات عربية الاصول والهوية، ويعلق قائلا في تخريجه لكلمة نيتروجين قائلا ان اربعة اخماس الهواء الذي يتنفسه البشر هو عربي. ابحاث خشيم طريفة وهو واع ان هذه الطرافة قد تقود الى الاتهام بالمبالغة في رد الكلمات الى اصولها العروبية. فهو مثلا يشير الى كتاب عبد الحق فاضل «مغامرات لغوية» وكتابات عبد العزيز بنعبد الله، ومغامرات لويس عوض اللغوية، حيث يصف كتابات الاخير بانها تتمسح بمسوح الاكاديمية ولا هم لها الا الطعن باصالة وسلامة اللغة العربية. خشيم الذي يستند على معرفة واسعة في اللغات يسوق الكثير من الادلة والظواهر والشواهد اللغوية والاركيولوجية لاثبات وجهة نظره عن اصالة المجموعة العروبية وهي تسمية غير تقليدية حيث تبتعد عن التقسيم اللغوي المعروف بين العربية الشمالية والعربية الجنوبية.

الاستاذ خشيم كان في زيارة للندن للاستشفاء وقد كانت مناسبة لزيارته والحديث معه، وهو رجل متواضع، سمح النفس، اريحي، حاضر البديهة، وقادر على الامساك بزمام الحديث ونقله من دائرة لاخرى، وهذا ينم عن موسوعية ثرة، فمذكراته «هذا ما حدث» التي يشي عنوانها بانه يقرر ما حدث ويسرده تظل بمثابة شهادة عن الحياة في ليبيا في منتصف القرن العشرين، قبل وبعد الاستقلال، وهي شهادة ثرية عن ملامح التشكيل لدى الجيل الذي نشأ على الهم العربي والاستقلال، ومعاداة الاستعمار، وكغيره من ابناء جيله فقد جرب في التيارات العربية والاسلامية التي كانت محل انتشار بين النخب المثقفة في العالم العربي، والاهم من ذلك فشهادة خشيم التي نحسبها ذات علاقة بالهم الثقافي وتجادله مع السياسة، هي عن المؤثرات وجيل الاساتذة الكبار، واول جيل من المتعلمين الليبيين بعد الاستقلال، حيث نشأت الجامعة التي جلبت لها احسن العقول العربية في مجال الفلسفة واللغة.

خشيم يقول انه جرب في الهموم العربية السياسية ولكنه يظل متمسكا بالحلم العربي الذي حمل معه الكثير من الطموحات وجسد الكثير من الاحلام رغم الاخفاقات الكثيرة التي اصابته فيما بعد. ويقدم هنا ملاحظة ذات دلالة لها علاقة باستقرائه للتاريخ ونظرته فيه، حيث يقارن كعادته في عقد المقارنات بين وضع الامة العربية اليوم ووضعها عندما سقطت بغداد فبين سقوط بغداد في يد المغول 1256 وبين سقوطها في يد المارينز «بالمناسبة الكلمة عربية، على الرغم من موقفه الشاتم لهم» عام 2003 حالة ذات دلالة، فعندما سقطت عاصمة الخلافة الاسلامية كان جزء الامبراطورية الغربي من مصر وما بعدها سليما، ولهذا السبب مارست مصر دورها التاريخي، وكان انتصار عين جالوت ليعيد للامة العربية ثقتها بنفسها، اما على ابواب القرن الحادي والعشرين فالامة العربية في طرفيها الغربي والشرقي وقلبها محطمة. وهي ملاحظة على الرغم من صدقها الا انها مدعاة للكآبة. حضّرتُ في ذهني عددا من الاسئلة حول مصير اللغة العربية في زمن العولمة، وعن اثر الانترنت التي تنتج رطانات مختلفة تجمع احيانا بين العربية والانكليزية، بل ان المزج واضح على شاشات الفضائيات خاصة بين مقدمات البرامج الشابات التي تتكلم كلمة بالعربية وبعدها بالانكليزية او الفرنسية، وغيرها من الاسئلة عن مصير العربية التي اعتقد انها من اللغات التي لم يخدمها اهلها كثيرا مع ان اكثر من مليار مسلم يحتاجون اليها في الصلاة والدعاء، ولكن الدكتور خشيم وضع الامور في منظورها الخاص، فهو وان آمن بما تراه الابحاث اللغوية في تاريخ واجتماع اللغات بكون اللغة كائنا حيا، الا ان اعتقاده بأولوية اللغة العربية على بقية اللغات واعتماد اللغات الاخرى عليها، على الاقل من ناحية المشارك والاشتراك بالجذور الاولى، فهو واثق من مستقبل العربية. وكثيرا ما انتقد الباحثون والمراقبون تأخر العرب عن كتابة معجمهم التاريخي وهم الذين كان لهم السبق والحظوة في كتابة وتأليف المعاجم في كل الانواع، وفي رأي الدكتور خشيم فان تأسيس معجم تاريخي للغة العربية مهمة طويلة وصعبة نظرا لتجذر العربية في التاريخ، ومقارنة مع لغات حديثة النشوء فمعجم اللغة التاريخي للغة العربية يحتاج الى جهد كبير. طبعا بدأت الجهود في ثلاثينات القرن الماضي وعادت من جديد في الفترة الاخيرة. في مذكراته «هذا ما حدث» اضاءة مهمة على التاريخ الثقافي الليبي والحركة الادبية العربية في خمسينات القرن الماضي، وفيه سرد لاحداث شارك فيها المؤلف، كاتبا او باحثا ومتحدثا وصانعا للاحداث الثقافية. وخشيم الذي جاء للغة من باب المعتزلة واعمال الجبائيين وتأثر كثيرا باساتذة الجيل الاول من الباحثين الفلسفيين المصريين، محمد علي ابو ريدة، وابو ريان وعبد الرحمن بدوي الذي لم يكن من اتباع مدرسته كثيرا وكتب عن الصوفية والشيخ احمد زروق الليبي، مع انه كان يود اعداد اطروحة الدكتوراة عن حركة الصوفيين التي كانت تنطلق منها حلقات الذكر، وقهوة البرعي، والسينما التي كان يملكها فلسطيني اصله من بلدة الجاعوني، وهي التي كتب عنها المفكر والكاتب الفلسطيني الراحل احمد صدقي الدجاني، الذي عمل وصاهر اهل ليبيا. المثقف الليبي هنا كان منخرطا في النشاط الثقافي العربي، يعرف الكثير من الاسماء، يوسف السباعي، وعن اليونسكو ومعارك احمد مختار امبو مع امريكا، معارك نزار قباني الذي ينحاز اليه والى غنائيته، والمجلات الثقافية العربية المهمة، ويرصد صورة عن المجلات العربية التي كانت تصدر للناشئين ونوادي الكتابة واصدقاء القلم الذين كانوا يجتمعون حول مجلة عربية من المجلات المهمة التي شكلت وعي الجيل الجديد بالعالم. كما يتحدث عن مدن اخرى، ومرافىء في اسبانيا، ولندن، ودرهم، واوكسفورد، وعن رحلات في الشرق الاقصى مع الفنان الكاريكاتيري «الزواوي». كان خشيم شاهدا على انهيار الحلم العربي بهزيمة حزيران (يونيو).

«هذا ما حدث» هو عن الجيل الذي يصفه الكاتب بانه «نحت طريقه بالاهداب في طريق الصوان السوداء، وجعل من عيونه جسرا تعبر عليه الاجيال القادمة الى مستقبل افضل وارفق وارحب واحلى واجمل، جيلي عاش بالامل وتغذى على الحلم وسار افلاطونيي كامبريدج التي رأى انها تأثرت كثيرا باعمال مفكري المعتزلة، وافلاطنيو كامبريدج هم حركة فلسفية نشأت في انكلترا في القرن الثامن عشر. تمنح المذكرات القارئ فرصة للاطلاع على تشكل رؤى شباب صاروا شيوخا حول «الحلم العربي» الكبير الذي تداعى، ونرى ايمان الشبان هؤلاء بالحلم الناصري، حيث يذكر الكاتب انه توقف عن الكتابة في مجلة لانها هاجمت الزعيم، سيرى خشيم الزعيم الكبير، ويلتقط له صورة عندما زار طرابلس بعد ثورة الفاتح. والاهم من ذلك، هي تجادل الحلم العربي هذا وسط تيارات متشابكة، وتشي تجربة خشيم ان هذا الجيل كان مفتوحا على التجارب الفكرية، الاسلامية. قرأ مثلا سيد قطب، والاشتراكية، والشيوعية، والقومية والبعثية. كانت ليبيا في هذه الفترة مركز جذب واستقطاب للعديد من الوجوه الفكرية والثقافية، كما ان انخراط الكاتب في حركة النشر الثقافي، واصداره مجلات ثقافية اهمها «قوريناء»، وتعامله مع الكتابة كقدر محتوم تعطي صورة عن هذا التجادل. وفي الكتاب اضاءات كثيرة عن رموز فكرية وثقافية عربية مهمة، من الشرق والغرب. وقد دهشت عندما اكتشفت ان المثقف الجزائري مالك بن نبي الذي حاضر في ليبيا، واستمع له المثقف الشاب، كان لديه حس او رهاب من الملاحقة الامنية، ليس من نظام عربي ولكن من القوى الامنية الكبرى. وكنت ولا زلت اعتقد ان مالك بن نبي المثقف الذي كان مشغولا بفكرة الحضارة، وقابلية الدول للاستعمار، وعوامل نشوء الدول، وبداية التاريخ ونهايته، مثقف لم يلق حقه من العناية والبحث والتنوير، ربما لتجربته في فرنسا ومصر، وعودته للجزائر ثم عزلته عن العمل العام وتفرغه للكتابة والنقاش مع الاجيال الشابة. يكشف خشيم عن تيارات كثيرة في الشعر العربي واسماء كثيرة، فهو يسرد الاخبار والاحداث كما حصلت، واحيانا يكتب بلغة ساخرة ومثيرة للضحك. ولكن ما يجذب في مذكراته هو مرحلة التكوين الفكري وعلاقته بالجغرافيا والفضاء، فهو الذي زار العديد من العواصم والمدن، والتقى بأرباب الفكر والثقافة، لا يني يحن لزمنه في «زنقة بوشلاكة»، وبحثه عن الاماكن القديمة، او اماكن الطفولة. وتظهر مذكراته صورة عن كاتب ومثقف ليبي «قلاق» بحسب تعبير صديقه، الفقيه ابن المدارس الدينية الذي سافر لامريكا للدراسة، عمر التومي الشيباني. يستعيد خشيم، حركة الحياة في المدن الليبية في دكان الحاج السوسي صاحب محل العطارة الذي كانت تنفذ منه روائح البهارات «قرنفل وجاوي ووشق، وقماري، وقرفة، وفاسوخ»... مثلما يستعيد محلات الطليان ورطانتهم ، وزوايا الصوفيين ببصيص من نور الرجاء.. ولا يزال»، وحياته وحياة جيله عن رحلة الزمن التي يشعر ان خمسمئة عام مضت عليها «استضئت بفتيلة الزيت، وها انا اسبح في نور الكهرباء الغامر، تعلمت اول حرف بقلم من الغاب على لوح مطلي بالطين، واذا بي اتصل بالدنيا كلها بشبكة الانترنت.. مشيت حافيا وامتطيت احدث الطائرات الاسرع من الصوت وافخمها، بت على الطوى ونزلت في افخم الفنادق.. اكلت الجراد ايام المسغبة وطعمت اشهى الاطعمة واشهرها واغلاها ثمنا. عاصرت ضروب الحكم في بلادي، مستعمرة، فمملكة متحدة، فمملكة موحدة، فجمهورية وجماهيرية، وخالطت اهل مختلف الايديولوجيات والافكار وارباب شتى السياسات والاتجاهات، وتعاركت وتصارعت وخاصمت وصالحت ورافقت وداخلت وصاحبت وعاندت وقبلت ورفضت وتفاعلت وتشاءمت ويئست ورجوت، ضحكت وبكيت، نجحت واخفقت، احببت وكرهت، سعدت وحزنت...». خشيم خاض غمار تجربته الثقافية هذه، مراقبا ومشاركا، ومفتعلا احيانا معارك يعتذر عنها، تماما عندما كان طالبا وهاجم كلمة القاها الباحث الاردني ناصر الدين الاسد، الذي اصبح صديقه فيما بعد، كما خاض معركة نقد ضد الشيخ الشعراوي الذي يرى انه «لمع» اكثر من اللازم، ولغته وطريقته في الاداء التلفزيوني مناسبة فقط للعامة والامين، وهي ما جلبت عليه عددا من الانتقادات، كما يعتقد ان الكاتب الليبي الصادق النيهوم «الهيبي» الذي اهتم بمقارنة الاديان والف عددا من الكتب اهمها «اسلام ضد اسلام» كتب بلغة غامضة ادت لسوء فهمه. في جل انتاج خشيم الفكري والثقافي، نرى انه ركز على فكرة حركة اللغة، تواصلها واصولها، وسلسة كتبه، ومعجمه عن اصول الامازيغية «البربرية» ودفاترها، وعن الاباطرة الرومان واسمائهم العربية، و«الكلام على مائدة الطعام» وغيرها تعطي صورة عن مثقف مقنع في عرضه لفكرته مع ان الكثيرين قد يختلفون معه في تأكيده على اولوية اللغة العربية او المجموعات العروبية، اضافة لكتاباته عن الفلسفة وعلم الكلام والتصوف خاصة اعماله عن احمد زروق شيخ الطريقة الزروقية، والتي كانت موضوع دراسته للدكتوراة، وقراءته في التاريخ الليبي القديم والفرعوني، كلها تعكس الهموم والاهتمامات لمثقف عربي ليبي، هي رحلة بدأت من زنقة شلاكة في طرابلس وطافت العالم وانتهت في نفس الزنقة التي تغيرت قطعا بفعل الزمن.

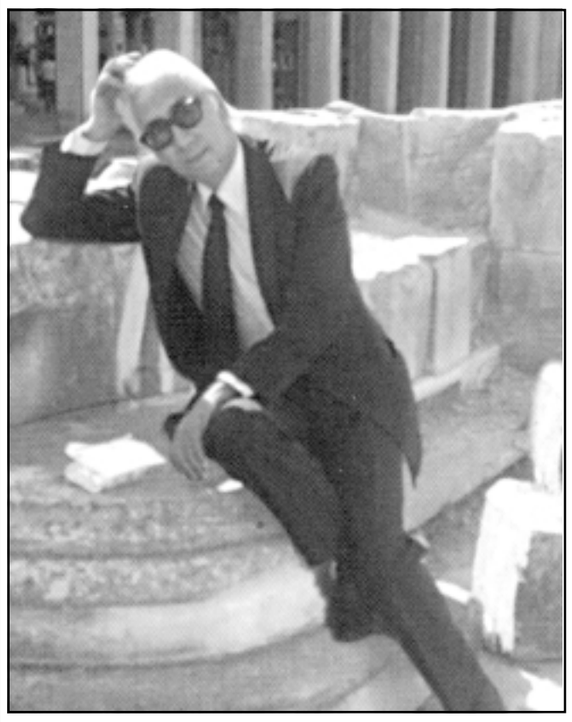

علي فهمي خشيم

علي خشيم وزوجته عائشة وابنته هند في برج القاهرة عام 1966

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

الباحث والمترجم المغربي الدكتور عز الدين الخطابي:

ترجمة النصوص الفلسفية شبيهة بمغامرة عوليس!

الرباط ـ «القدس العربي»:

إن عملية الترجمة لا تقتصر على النقل (نقل فكر لغة إلى لغة أخرى)، بل تساهم في خلخلة الثقافة المتلقية وتؤدي إلى طرح أسئلة جديدة، متحررة من معطف الثقافة المانحة.
إن فعل الكينونة Estin âtre الإغريقية) هو الذي انبنت عليه قضايا الأنطولوجيا الغربية، في حين ظل هذا الفعل مضمرا على مستوى صياغة قضايانا الأنطولوجية والفكرية بشكل عام.
هامش تحرك المترجم يكون أضيق من هامش تحرك المؤلف، لأنه يتعامل مع نص قائم بذاته، يفترض نقله بأقل الخيانات الممكنة.
إن النص الخاضع للترجمة محظوظ، كيفما كان مستوى ترجمته، أما النص الذي لايجد من يترجمه، فانه يظل في وضعية حداد.

■ في زمن «بيت الحكمة» شكلت الترجمة قاطرة بناء الفضاء الثقافي العربي في أقوى لحظاته، فقد بدأ الكندي مترجما وانتهى فيلسوفا، هل لا زال بالإمكان الرهان على الترجمة لتحقيق طفرة ثقافية مماثلة؟

■ في زمن «بيت الحكمة» تجلت الإرادة، بالمعنى المحدد من طرف الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر M.Heidegger، كتعبير عن روح الشعب. فقد تجلت الإرادة السياسية في شخص المأمون وفي الدولة العباسية التي مهدت الطريق أمام عملية الترجمة وبوأت المترجمين مكانة هامة. كما تجسدت كإرادة روحية عبر فعالية «المثقفين» في تلك الفترة (أدباء ومتكلمين وفلاسفة الخ...). والنتيجة، هي حصول ذلك التلاقح الثقافي الذي ازدهر من خلاله الفكر العربي الإسلامي عبر نهله من مختلف الثقافات (اغريقية وفارسية وهندية الخ...). والأمر الهام، هو أن عملية الترجمة لم تقتصر على النقل (نقل فكر لغة إلى لغة أخرى)، بل ساهمت في خلخلة الثقافة المتلقية وأدت الى طرح أسئلة جديدة، متحررة من معطف الثقافة المانحة. ولولا ذلك لما كان للفكر العربي الإسلامي ذلك الإشعاع الذي عرفه في العصر الوسيط، ولما ترجمت أعمال مفكرينا إلى اللاتينية، كي يستثمرها مفكرو الغرب؛ فلو كانت هذه الأعمال مجرد نقل للتراث الإغريقي ـ كما أعلن ذلك، الموقف الاستشراقي المتحيز لمركزيته الغربية ـ لما تم استثمارها من طرف المفكرين الأوروبيين، ولكان هؤلاء قد اختصروا الطريق ونهلوا مباشرة من فكر الإغريق، دونما حاجة الى شروحات وتعليقات ابن رشد او ابن سينا ولا الى اجتهادات الرازي او ابن الهيثم على سبيل المثال.

ان هذه التجربة المتميزة هي عبارة عن درس، يتعين علينا أن نستخلص منه ما يلي:

ـ أولا: لقد كانت الترجمة ولا زالت، اداة للتفاعل بين الثقافات واللغات. ومن هنا تبرز أهميتها في عصرنا الذي يحمل شعار: «حوار الثقافات والحضارات».

ـ ثانيا: إن هذا التفاعل بين اللغات والثقافات، سيجعل من الترجمة محركا للصيرورة الفكرية واللغوية ومساهما في إنجاز ما سميته بـ«الطفرة الثقافية». فالترجمة ليست مجرد نقل، بل هي حوار ونقاش بين أطراف قد تكون متباينة الرؤى والأحكام، لذلك فهي تعتبر ضرورية في هذه المرحلة من مسار ثقافتنا وفكرنا.

■ إذا كانت اللغة مسكن الوجود حسب التعبير الهيدغري، فإلى أي حد يمكن الاعتقاد بقدرة المترجم على التحرر من حمولة لغته الثقافية والاجتماعية والنفسية لضمان نقل أمين للنص المترجم؟

■ تذكرني هذه الإحالة على هيدغر، بفكرته حول الترجمة والتي لخصها صديقه جان بوفري في مقدمة كتاب «أبحاث ومحاضرات» بقوله: «إن الترجمة هي مثول امام...Traduire، c'est se traduire devant». وبالفعل، فالأمر يتعلق بحوار بين اللغات والثقافات، أي بتواصل. لكن المشكلة الأساسية تتمثل في مدى قدرة لغة المترجم على نقل معاني ودلالات اللغة المترجمة. وهي ليست مشكلة لسانية فحسب، بل أيضا مشكلة فكرية. فغياب الرابطة الحملية في اللغة العربية مثلا، كان له تأثير كبير على البحث الأنطولوجي العربي الإسلامي. لأن فعل الكينونة âtre(Estin الإغريقية) هو الذي انبنت عليه قضايا الأنطولوجيا الغربية، في حين ظل هذا الفعل مضمرا على مستوى صياغة قضايانا الأنطولوجية والفكرية بشكل عام.

وهنا يظهر أمامنا المثل الإيطالي الشهير: Traduttore tradit-tore، أي الترجمة خيانة. فهل يتعلق الأمر بتصور قدحي او تشهيري لفعل الترجمة؟ لا نعتقد ذلك، لسببين على الأقل:

ـ أولهما: أن كل ترجمة هي تأويل. ونحن نعلم أن كل ملفوظ يتضمن معاني متعددة، لذلك لا يمكن أن يستقر فهم المتلقين لنص معين على معنى واحد. وهو ما يفسر اختلاف الترجمات وتباينها بخصوص عمل ما.

ـ ثانيهما: أن المترجم لا يمكنه ان يتحرر من السياقات المحددة لفعاليته اللسانية والحجاجية والفكرية، وهي سياقات لا تتلاءم بالضرورة مع مقتضيات النص المترجم وسياقات إنتاجه.

لذلك، فإن العلاقة بين النص الأصلي والنص المترجم، كما يقول المفكر الفرنسي الراحل جاك دريدا J. Derrida، ليست عبارة عن إعادة إنتاج، لأن الترجمة ليست صورة ولا نسخة.

وبدون الخوض في مناقشة أطروحة المفكر المغربي طه عبد الرحمن، حول أفضلية الترجمة التأصيلية في الفلسفة، على الترجمتين التحصيلية والتوصيلية، لا بأس من الإشارة الى أن كل ترجمة هي تأويل وأننا كما يقول المفكر الفرنسي بول ريكور Paul Ricoeur، بإمكاننا دوما قول نفس الشيء بطريقة أخرى، وذلك هو أساس عمل المترجم.

■ إلى جانب أعمالكم في الترجمة قمتم بتأليف مجموعة من الكتب، فما هي خصوصية إنتاج كتاب مترجم مقارنة بتأليف كتاب خاص أم أن الأمر سيان من منطلق أن ترجمة كتاب هي بمثابة إعادة كتابته؟

■ من الناحية الصورية، يبدو وكأن ترجمة كتاب ما، تخضع لنفس معايير تأليفه. وأقصد بذلك، وجود مسؤولية أخلاقية وحقوقية والالتزام بمحددات أسلوبية وبتراكيب لغوية والقيام باجتهادات وتأويلات واستحضار سياقات معينة.
لكن الممارس للعمليتين (عملية الترجمة وعملية التأليف) يدرك الاختلاف بينهما. فهامش تحرك المترجم يكون أضيق من هامش تحرك المؤلف، لأنه يتعامل مع نص قائم بذاته، يفترض نقله بأقل الخيانات الممكنة.

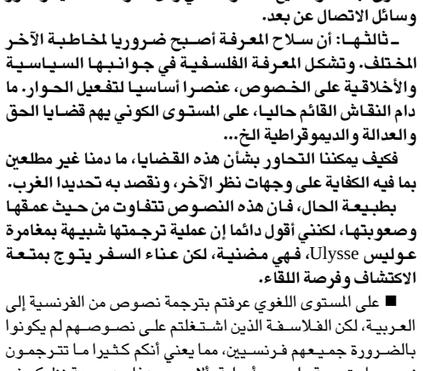

عز الدين الخطابي (القدس العربي)

كما أن حرية المترجم تكون مقيدة، بحيث لا يمكنه مثلا إصدار أحكامه على النص المترجم، اللهم إلا ما قد يبثه من ملاحظات في التقديم أو في بعض الهوامش. أضف الى ذلك، أن بعض التراكيب والصيغ والمفاهيم القائمة بالنص الأصلي، تفرض عليك تطويع لغتك وإخضاعها لمقتضيات هذا النص. وهنا تطرح مسألة عدم قابلية بعض النصوص للترجمة، وتلك قضية أخرى.

■ اشتغلتم على ترجمة نصوص عديدة تغطي مختلف جوانب العلوم الإنسانية، لكن أغلب اشتغالكم انصب على النص الفلسفي خصوصا في نسخته المعاصرة، فما هي دواعي هذا التوجه؟ وما هي خصوصية ترجمة نصوص فلسفية تتميز بصعوبة التناول حتى في لغتها الأصلية؟

■ إن الإهتمام بترجمة نصوص فلسفية معاصرة ينبع من ثلاثة مقتضيات على الأقل

ـ أولها: ندرة المؤلفات الفلسفية المترجمة الى اللغة العربية، وما يستتبع ذلك من اطلاع محدود للقارىء العربي على مستجدات الأبحاث الفلسفية المعاصرة. وعلى سبيل المثال: كم عدد مؤلفات جاك دريدا، المترجمة الى اللغة العربية؟ علما بأن ما أنتجه هذا المفكر يفوق الثمانين مؤلفا. والجواب، هو وجود ترجمات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة وينطبق نفس الأمر على فلاسفة ومفكرين ذوي إنتاجات غزيرة وهامة مثل: هابر ماس ولفيناس ودولوز وروركي وغيرهم.

ـ ثانيها: أن مواضيع الفلسفة المعاصرة متنوعة وغنية، فهي تهم قضايا الفلسفة الأخلاقية والسياسية والجمالية واللغوية والمعرفية Cognitive الخ... وما أحوج خزاناتنا ومكتباتنا لمؤلفات تتطرق لهذه المواضيع، خصوصا في زمن العولمة الثقافية وتطور وسائل الاتصال عن بعد.

ـ ثالثها: أن سلاح المعرفة أصبح ضروريا لمخاطبة الآخر المختلف. وتشكل المعرفة الفلسفية في جوانبها السياسية والأخلاقية على الخصوص، عنصرا أساسيا لتفعيل الحوار. ما دام النقاش القائم حاليا، على المستوى الكوني يهم قضايا الحق والعدالة والديموقراطية الخ...

فكيف يمكننا التحاور بشأن هذه القضايا، ما دمنا غير مطلعين بما فيه الكفاية على وجهات نظر الآخر، ونقصد به تحديدا الغرب.

بطبيعة الحال، فان هذه النصوص تتفاوت من حيث عمقها وصعوبتها، لكنني أقول دائما إن عملية ترجمتها شبيهة بمغامرة عوليس Ulysse، فهي مضنية، لكن عناء السفر يتوج بمتعة الاكتشاف وفرصة اللقاء.

■ على المستوى اللغوي عرفتم بترجمة نصوص من الفرنسية إلى العربية، لكن الفلاسفة الذين اشتغلتم على نصوصهم لم يكونوا بالضرورة جميعهم فرنسيين، مما يعني أنكم كثيرا ما تترجمون نصوصا مترجمة وليست أصلية. ألا يسهم هذا من وجهة نظركم في إرباك مضمون النص الأصلي؟

■ من بين أكثر من عشرة أعمال مترجمة، هناك استثناء واحد يتمثل في ترجمة نصوص لهابرماس حول هيدغر، اخترت لها كعنوان «هيدغر والنازية، التأويل الفلسفي والالتزام السياسي». ويمكن أن نضيف إليها ثلاثة نصوص متفرقة لحنا آرندت وكارل بوبر وكانط ضمن مؤلف «في الترجمة والفلسفة السياسية والأخلاقية» الذي يتضمن ثلاثة عشر نصا. أما ما عدا ذلك، فان النصوص الأخرى هي لفلاسفة ومفكرين فرنسيين مثل: دريدا، شاتلي، دولوز، ريكور، لفيناس الخ... طبعا، هذا لا يعني أن عملية الترجمة تكون اسهل في هذه الحالة لأن نصوص هؤلاء المفكرين الذين ذكرتهم، تتسم في أغلبها بالتعقيد ويصعب اختراقها.

وأتفق معك، على أن الترجمة من الدرجة الثانية أو ترجمة نص مترجم أصلا، قد تربك مضمون النص الأصلي وقد تكرس انغلاقه وسوء فهمه، وهو ما يحدث مرارا مع النصوص الألمانية المنقولة الى الفرنسية والمترجمة من هذه الأخيرة الى العربية (نصوص نيتشه وهايدجر مثلا).

لكن، ما سيخفف من واقع هذا الحكم، هو كون الترجمة عبارة عن تأويل في آخر المطاف، لذلك فإن بإمكان النص المترجم أن يقال بصيغ مختلفة. وهناك مسألة اخرى، أود إضافتها، وهي مستعارة من دريدا، ومفادها ان النص الخاضع للترجمة محظوظ، كيفما كان مستوى ترجمته، أما النص الذي لا يجد من يترجمه، فانه يظل في وضعية حداد.

■ ساهمتم بشكل كبير في إغناء مجال الترجمة في المغرب سواء من خلال أعمالكم الفردية أو الثنائية أو الجماعية، كما تعاملتم مع ناشرين مغاربة وأجانب عرب بالأساس، فما مدى تقييمكم لتجارب النشر في مجال الترجمة بالمغرب والعالم العربي عموما؟

■ إن التجربة الوحيدة في مجال النشر خارج المغرب تمت مع دار الساقي، وهي تجربة غنية ومفيدة من جميع الأوجه. وقد كان من المقرر أن يصدر لي عمل مترجم ومشترك بدار المدى، تحت عنوان «الشرق القديم ونحن» (حول ميلاد الفكر واللغة لدى الأشوريين والبابليين والفرس والإغريق والعبرانيين)؛ لكن الى حد الآن ما زالت هناك شكوك تحوم حول هذه الإمكانية.

التقاه: محمد فاضل رضوان

كناسة الزفرات

سمر دياب*

1
كي أدحض السحابة التي أضمرت للأرض شرا
مذ قرعتُ مهرة ناحلة
كناسة الزفرات .. رثتيّ على مأدبة تحترق

2
من ذا الذي يلهث ورائي
من ذا الناتئ من روحي
من اقتنى لي ثمالة ومغيبا شرها
كي أنهض في الناقوس باكرا ؟

3
تقول النجمة لنابها
أتعثر بنهديّ كلما مشيت
لم أكثر من النبيذ ..الا قليلا
أمامي تكسر جوزة ريحها
لم تلو الوردة رائحتها
حتى انتصبت أنفاسي.

4
تقول ضاربة الجسد
أهلكني البحر وانا أجرحه
توسلت النشوة حتى نفقَ الحريق
لم أعد أعرف زوايا فمي من زوايا الأرض
وانا أفلت طيراً و ألم شعري على مهل
تهجوني العرائس فألهج بالفوانيس
لكني لن أشكو خصري للحطاب
سأكتحل.

5
الليل لا يتربص بساقي المهجورين على الشاطئ
ماذا تراني فاعلة ؟
أأزرع في البحر مزمارا كلما ضربني المطر ؟
أنهش مرآة لم تعد تراني في الطير؟
أفضي الى غمام فجّ دون وجنتين ؟
أشعل ريقي وأرقص حوله ..
كهندي أزرق ..؟
أزعم أن القرميد شفاه كوخ بحري ؟
أقول ذات سوسنة لنبي ..
لن أفتش في جوفي عن خاتم كي لا أصدقك ؟
أم أزعم أني حلم في طاحونة؟

6
على الشجرة تفاحة لم تسقط بعد
أحدهم يلوذ بمخرز ممشوق
احداهن تزخر بمناديل مقعرة
وقمر أصم .. مرئي الأنفاس ..تنهبه مرساة
على عينه يقف
على عينه يمكر
على عينه يولني لغربال جائع.

7
جلستُ في مقدار عنقود من الملح
لا أبعدُ عن أظافري سوى اصبعين وشوارع ثلاثة ..
وحين في الحواس هاتفني خريف.
نهضت من التخمة
لأثرثرعن بجع يرتعش في موقدة .

8
كنتُ أزمع أن آوي الى خلدك
حين يكتب احدهم عن عيني.

9
كناسة الزفرات ..
لم أكمل نهدتي الألف بعد ..
تعصيني المغفرة .. فأخرج شاهرة فحمي
وأتنبأ بأيقاع لخراب موسيقي .

10
ياالعناء السماء
ياللذئب المتشظي في بحة النظرات
ياللنصل النداّه
ياللعين الدرداء .. تقضم ظلا يفرّ جائعا
ياللضباب الشفيع .. خلف أذن محرقة
يا لطرق الثيران على دمي ..
ياللضجة
ياللضجة
ماذا تراه يرى حين تنعس شوكة ؟
حين تجحظ سرة ؟
الأعمى المرقط.

11
الضوء خاو .
حيث لا مهمةٌ للقيامة سوى نطح الشمس
والتربيت على ضجر الطيبين
يضحكني حبل الوريد حين يقترب.

12
ارشقيني بعلبة النعاس أيتها الوردة
الليل نيء .
ولا أحد ينهب رموشي..
تهدلت أثداء بومة
وعيناي مازالتا كعرش سمكة.

13
أحيانا
وكزلزلة صوفيّة
أغرب عن وجهي .. وأفكر.
هل يتسكع الغرق خارج شفتي ؟
أم أنها إشاعة من ريح حاقدة..

14
من هنا مر أعمى أرقط
رأيته يكسر حدقته على بعد صمتين،
ينفخ على رمانة فتضيئ
يهر على حاسة زائدة .. وتَعدّه النجوم عتمة.

15
للمرأة بأحمر شفاه فاقع ..كبد مهجور
كما لمدينة لا صفصاف
في الطريق اليها
كما لساعة متأخرة في الليل..
كما لقصيدة مترجمة.

16
الغجر هاجس ناهد
..ياليتهم أقرب
كواليس الرهان على الظهيرة
لم يفطمهم أحد
ملح يشتري قصيدة
يتركون في الترف أنبياء طازجين
وبراكين مقشرة.
حواسهم ملعونة ..تفتن عليّ حين أؤلف
بعضا من جوع ..
الغجر.. شركٌ لشبّاك عنجهي.
ياليتهم أقرب.

17
يبقى بعد أن تغيب الشمس في أيلول ما
ضجيج مدينة مذعورة من قبلة .
أو ربما ..
أقصى الذبح.
سوسنة مُرّة مترفة
أو نصف رائحة إشارة كاملة
فتحٌ من أسماء الصيادين
أو فأس يدندن في عناق ..
بعد أن تغيب الشمس ..في أيلول.

18
كناسة الزفرات
إليّ يا جفن قايين العتيق
لا هذي الأندلس خرزي
ولا هذي الحمائم لي.
لا يبشر بالمساء سوى غراب من الجنوب.

19
كصرير ملك مهجور...

20
صديقتي التهمة
ليست الأرض على مايرام ..لكن..
عشرين زفرة تنفع دانتيلا لشياطينك.

* شاعرة من لبنان تقيم في اسبانيا